الطاهر وطار
يوم مشيت
في جنازتي...
ومشى الناس
قصص
ENAG
EDITIONS

إهداء ٢٠١٠

الاستاذ الدكتور / خالد عزب

جمهورية مصر العربية

يوم مشيت
في جنازتي...
ومشى الناس

01 14 12 / 07
الإيداع القانوني 2007 ـ 867
ردمك 7 - 505 - 62 - 9961 - 978

الطاهر وطار

يوم مشيت في جنازتي... ومشى الناس

قصص



موفم للنشر

كتب للمؤلف

الروايات:

اللاز (موفم للنشر)

الزلزال (موفم للنشر)

الحوات والقصر (موفم للنشر)

عرس بغل (موفم للنشر)

العشق والموت في الزمن الحراشي (موفم للنشر)

تجربة في العشق (موفم للنشر)

رمانة (موفم للنشر)

الشمعة والدهاليز (موفم للنشر)

الوالي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي (موفم للنشر)

الوالي الطاهر يرفع يديه بالدعاء (موفم للنشر)

القصص:

دخان من قلبي (موفم للنشر)

الطعنات (موفم للنشر)

الشهداء يعودون هذا الأسبوع (موفم للنشر)

المسرحيات:

الهارب (موفم للنشر)

على الضفة الأخرى (مجلة الفكر التونيسة)

الترجمة:

الربيع الأزرق ترجمة من الفرنسية للشاعر فرانسيس كومب.

جارتنا المكلة

لن أتأخر كثيرا ملكتي العزيزة وآتيك. تلتحم روحانا في عناق موجع، وتنتقلان إلى عالم الخلود.. إن هي إلا لحظات يهتز فيها كياننا، ثم يطبق الصمت الرائع.

لست أدري كم مرة رددت هذا القول، واتخذت هذا القرار، ويبدو أنني أفعل ذلك إثر كل كأس أفرغ منها، فقد اتخذت استعداداتي لرحلة لا رجوع منها، تتم بعد الوصول إلى درجة الودر. عند ما لا يبقى بعد السكر سكر، وتختلط الظلمة بالنور. والضوء يتحول إلى ضباب متعدد الألوان والأشكال، تومض ثم تختفي، تحضر وتغيب. وعندما يحلو للنصف العلوي من الجسد، أن يترنح يمينا، بينما يحلو للنصف السفلي أن يذهب يسارا. حينها يا حبيبتي أسرج عزيمتي وآتيك. أعري نصفي الأعلى وأخرج هاتفا، لبيك ملكتي. ها أنا ذا، امنحيني قبلتك الأولى والأخيرة، وأمري أولادك وبناتك، بأن يطبع كل واحد منهم قبلة، تجهز علي، وتعجل بالرحيل.

قلت آتيك. آتيك، يعني آتيك.. لن أتأخر هذه المرة، كما حدث في المرات السابقة، ومنذ سنتين.

مرة، نمت، وسط الشرب، ولم أستيقظ، إلا وقد ادلهمت الظلمة، فكنت أنت وقومك نياما.

مرة، تناهضت وتعلقت بما صادف وعندما استيقظت، وجدتني قرب قصرك، منهك القوى بينما بناتك يحمن حولي، مستريبات من أمري ولربما مستغربات.

مرة، شربت كل ما لدي من قناني، فلم اسكر، ساءني الأمر فانخرطت في البكاء طوال المساء وجزءا كبرا من الليل.

عندما يكون المرء في قمة الحزن، لا يسكر، بل، يكون له سكر خاص، شبيه، بالنوم وقوفا. يغوص الإنسان إلى الأسفل، ثم يطفو إلى فوق، وبين الغوص والطفو، يظل مدركا لجريات الأمور من حوله.

ربما كان السبب يومها، ما فعلته معي القطة، أو بالأحرى أبناؤها. ولدتهم في الحديقة، ولم يكن لها أحد، يعينها على محنتها سواي.

أسقيها لبنا، أشتري لها السمك، أوفر لها الماء، ورغم أن الصغار شديدو النفور مني، إلا أن بوادر صداقة متينة بيني وبينها بدأت تتبدى. أناديها فتأتي، تعطيني رأسها، فأحكه بأناملي، يروق لها الأمر كثيرا، فتموء معلنة عن امتنانها.

لكن يا ملكتي العزيزة، ما أن اشتد عود أولادها، حتى أخذتهم وراحت.. راحت حيث لا أدري، وكأن شيئا لم يكن بيننا.

قررت يومها أن أفعلها. آتيك وننهي العجالة.

أرحل. لا خير في هذه الدنيا الخالية من الوفاء.

قلت قد أجد في العالم الآخر، قططا وفية.

جرت الأمور على غير ما اشتهيت. فأجلت المسألة إلى محاولة قادمة.

لا أدري متى كانت تلكم المحاولة، وهل هي التي تلت أم كانت مجرد واحدة من المحاولات الكثيرة.

كل ما أذكره، أن محاولة من جملة محاولات أخرى جرت.

لا أدري كم كأسا عببت في رأسي، حتى الآن.

القنينة الثالثة خاوية. نائمة على جنبها الأيسر كأنما هي سكرانة.

هأه هأه. سكرت القناني قبل محتسيها. هأه هأه. سكرت فنامت على جنبها الأيسر. لا شك أن قلبها أشد امتلاء ووجعا من قلبي.

آت. آت.

قراري لا رجعة فيه هذه المرة، ولن يعوقني عن تنفيذه عائق. وعندما أنهي القنينتين المتبقيتين، آتيك، ملكتي. صبرا قليلا.

في الحق القرار متخذ منذ عهد بعيد.

عندما سقط الجدار،

قلت ليلتها، فلتسقط كل الجدران.

يومها، ملكتي الحبيبة، لم تكوني قد حللت بيننا بعد، وكان لدي غدارة، من صنع تشيكي، جميلة ومغرية، من بقايا أيام الحلم، أيام الأمل تلك، التي ولت بدون رجعة.

استخرجتها الغدارة المباركة. تفقدت خراطيشها. تفقدت آليتها. كانت في حالة جد جيدة. نشفت الزيت المطلية به، وقلت، الآن وإلا فلا.

لتسقط كل الجدران، فعندما تموت كل الآمال، يكون المرء قد مات فعليا، ولا يبقى سوى جثة تمتلئ وتفرغ، في انتظار انصرافها النهائي.

مادام الأمر كذلك، فلأنصرفن حالا.

لم أشرب يومها. لم أكن في حاجة لأن أشرب، فليس أسكر من خبر سقوط الجدار.

وجهتها أولا إلى رأسي، ما بين الأذن والحاجب، وقلت أتكل على الله. ترددت قليلا، وخفت أن لا ينتهي الأمر بسرعة، فأعاني ألما أنا في غنى عنه.

وجهتها إلى صدري، وتلمست، حتى عثرت على موقع النبض. هنا. هنا. المسألة وما فيها لن تستغرق أكثر من ثوان... طخ. ولا شيء بعد طخ.

بينما أنا بين التصميم، واختيار الموقع، إذ بالباب الذي تركته عمدا مفتوحا، حتى يعثروا على جثتي قبل التعفن. خشيت التعفن، ذلك أنهم سيتقززون مني وهم يتعاملون معي، سيغلقون أنوفهم، وسيتأففون، ولربما يلعنونني في سرهم وعلانيتهم، ومثل هذه الأمور لا داعي ولا موجب لها.

جئت نظيفا فلأذهب كما جئت.

في تلكم الأثناء، دخل أحد الرفاق المتحمسين، للإصلاحات وبادر، دون أية مقدمات:

ـ سقط الجدار. أرأيت. قلنا لهم كذا وكذا مرة، إن قضيتنا كي تنتصر الانتصار النهائي ينبغي لها أن تتبع النهج الديموقراطي. ماذا تفعل بهذا السلاح؟

ـ سأذهب إلى بوليفيا، لنصرة تشي.

ـ لكن تعش أنت.. منذ سنوات.

ـ لا بد أن هناك تشي ما في مكان ما من هذا العالم.

ـ أتدري ما سيحدث بعد سقوط الجدار؟.. ستنتشر أفكارنا ويتضح نموذجنا، في كل مكان، ذلك، أنهم كالحواريين، سيخرجون وسينتشرون في الأرض..

هذه نعمة من بها المنان علينا. سيتغير العالم في سنوات قليلة.

تسود أفكارنا بين جميع الناس، وسنستريح.

ـ نستريح.

قلت. ثم تركته واتجهت نحو المرحاض. تقيأت، حتى اعتراني الوهن، وانصب مني العرق.

أقنعته بأن يتركني، واستغرقت في التفكير، ناسيا الغدارة والمشروع، الذي انبثق مع سقوط الجدار.

مجرد كلام عندما أرجع بداية المشروع إلى سقوط الجدار.

أخفي عن نفسي وعنك يا ملكتي العزيزة، الحقيقة.

كل الحقيقة. إنني أخجل من ذكرها. ذلك أن جزءا كبيرا منها لا يتعلق بفكري ومثلي وقيمي التي فنيت العمر أضحي من أجلها فقط، بل يتعلق بعاطفتي كإنسان. كرجل إن صح التعبير.

كنت وحدي ليلتها على طاولة العشاء، وكانت قاعة الفندق الفخمة شبه فارغة. تلفنت مرافقتي تعتذر عن المجيء الليلة، فعندها اجتماع مهم، فاستحسنت ذلك. أخلد إلى نفسي، وأستعيد أحداث الأسبوع من رحلة العمر هذه. حجتي الأولى كما قال أحدهم.

ـ فودكا.

فهمتني بسرعة، وراحت تشير بيديها إلى حجم الكمية التي أطلبها.. نصف لتر مبدئيا، ثم نرى. أفهمتها. فمزقت قلبي ببسمة في منتهى الروعة والرونق.

كانت لا تتعدى الرابعة والعشرين على ما يبدو. مستقيمة القد، فلا هي بالطويلة ولا بالقصيرة، لا بالسمينة ولا بالضعيفة، بل تميل إلى الرشاقة. بيضاء، تميل إلى الحمرة، وجهها مستدير، وأنفها يشبه أنف لبؤة، بينما فمها وذقنها، يتممان جمال الوجه الرائع.

أدركت أنني أتأملها بنهم، فأعادت بسمتها، وكررت:

ـ فودكا.

ـ إي نعم يا عمري فودكا، وفودكا، وفودكا، فعلى ما يبدو، هذه ليلتي، وعاشت كليوباترة وعاش أنطونيو وعاش شوقي معهم.

المعلومات التي عندي، تجمع على أن الحب في هذه الديار، اختياري، ونزيه، خال من كل الضغوطات غير الروحية، فمن أحببت، يبادلك الحب، إن التقت ملائكتكما كما يقال، وإن لم تلتق فلا إكراه في الحب.

هذه البنت، ينبغي أن أحبها، وينبغي أن تحبني. وعلى ما يبدو، فإن ملائكتنا تتغامز باللغة الربانية الخالدة.

حفزني على المضي في هذا المسعى، الاهتمام الذي يبدر منها بي. فهي، حتى وإن كانت تخدم زبونا آخر في طرف القاعة الضخمة، ما تنفك، ترسل نظرها نحوي، وبرق منير، يتراقص على شفتها، خاطفا بصري وروحي.

شكرت في قلبي كل الشكر مرافقتي على تغيبها هذه الليلة، وقلت، عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

كنت آكل ببطء، وأشرب بخفة، وكانت الفودكا من النوع الراقي، لم أعهده في الماضي، كما أن الكافيار الذي قدمته لي، لم يكن فقط من النوع الرفيع، بل كان بكمية مضاعفة، على غير العادة، وعلى غير ما قدم للزبائن الآخرين، دفعت طبقه بأناملها اللطيفة، واستمرت في لابتسام قائلة بالانقليزية. رائع، وأضافت كلاما آخر لم أفهمه.

كنت تحت رعايتها التامة، مشمولا ببسمتها الكريمة، طوال الوقت الذي قضيته، والذي لا أقدره إلا بكمية الفودكا التي احتسيتها.. ثلاثة أنصاف اللتر متتالية.

قالت كلاما عندما أدركت أنني لم أفهمه، سألتني عن أية لغة أستعمل، الإنقليزية، أم الفرنسية، أم الإيطالية، أم الألمانية.

ـ تتحدثين كل هذه اللغات؟

ـ والعربية أيضا.

ـ خذيني يا ابنة الأكرمين. يا رفيقة يا عزيزة.

تثنت. تثنت روحي معها.

ـ لا شك أنك متزوج.

ـ تعرفين ما يقول أنجلس في الزواج وفي العائلة وأصلها.

عببت كأسا أخرى، ثم أضفت:

ـ نتزوج على مذهب الإمام أنجلس.

ضحكت من أعماقها، وأكدت لي أنني شربت مقدار ما تشربه جماعة من السكارى، وأن الأفضل أن ألتحق بغرفتي.

حملت المفتاح، قرأت جيدا رقمه، أفهمتني أنها ستزورني في غرفتي بعد أن تنهي ورديتها، على الساعة الثانية عشرة.

تأملتها جيدا، هذا الملاك، تتعانق الآن ملائكتي وملائكته، وبعد ساعة، سنلتحم في عناق لا مثيل له.

عاش بلدك.

عاش نظام بلدك.

عاش من فكر في هذا الإنجاز العظيم، ومن نفذه. وعشت أنت أولا وأخيرا يا رفيقة، يا رائعة.

كنت أهذي متظاهرا بالسكر، ولربما كنت فعلا سكرانا، وكانت تضحك ملء شدقيها، وكانت بعض زميلاتها يبتسمن من هنالك.

لفت انتباهي أنها غير مبالية بمن حولنا، على عكس ما قيل لي من أن المتواجد في مثل هذه الفنادق، زائرا أو عاملا، يخضع للحماية المتواصلة، هم قالوا

الرقابة، ولكن، فضلت لحظتها التفكير في الحماية، فمثل هذا البلد الرائع، لا يمكنه إلا أن يحمي مواطنيه وزائريه من كل مكروه.

يكذبون. يتحاملون. دعاية رجعية، إمبريالية واستعمارية..

ـ ما اسمك يا ملاكي.

ـ نتاشا. ناتشا. سهل للحفظ.

قالتها بالعربية، فمزقت ما تبقى من عروق القلب.

ـ إلى بعد حين.

ـ إلى بعد حين.

غالبت نفسي، فتمكنت من الاستحمام، ومن حلق ذقني ومن التعطر، وجلست على كرسي بعيدا عن السرير، خشية أن يغلبني النوم.

لا أدري كم مرة من الوقت، حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب، أسرعت، فتحته، وفوجئت بها مع شاب أنيق جميل، سارعت إلى تقديمه:

ـ خطيبي، يعمل معي في المطعم.

تناولت الباب من يدي، فأغلقته، وسارعت إلى الدخول.

فتحت حقيبة يدها الضخمة، واستخرجت علبا، مبادرة، هذا كافيار من النوع الذي قمته لك، لا يوجد في السوق، ما عدا متجر اللجنة المركزية.. الكيلو الواحد بستين روبلا. هذا بستين.. هذا بأقل قليلا.

ـ يا أولاد الحلوف. يا أولاد الكلب.

صرخت من أعماقي صرخة مدوية، لا شك أن الطابق السابع عشر الذي اسكنه اهتز لها، وركضت للنافذة أحاول فتحها لإلقاء نفسي منها.. إلي يا لينين. إلي كي ترى ما يفعل أحفادك. إلي يا تروتسكي لنواصلها معا ثورة دائمة.

استعصى فتح النافذة، لكن إصراري كان حاسما. أفتحها، وألقي بنفسي، وأنهي هذا الوجود التافه في هذا العالم التافه.

قبل أن تنفتح النافذة وأصعد على طاولة عليها كتب وأثاث، كانت أيدي تمسكني. جماعة من ميليشيا، تخاطبني بلغة لا أفهمها، ولعلهم كانوا يسألون عما بي. نتاشا. نتاشا.

ظللت أكرر رغم لامبالاتهم، ولم أستفق إلا في غرفة أنيقة بالمستشفى، على صوت مرافقتي التي كانت تجلس قبالتي حزينة، وبين يديها باقة أنيقة من زهور، ذات ألوان عديدة.

ـ فعلا كنت في اجتماع للمترجمين والمرافقين، أشعر بالذنب يا سيدي فلولا تغيبي، لما حدث لك مكروه.

بسيطة. قلت. وأضفت في قلبي: «الجرح يبرأ وكلام العيب ما يبرأ».

ـ تعلم يا سيدي، أن بلدنا يعاني بعض التعقيدات. نشعر أننا لم نعد وحدنا في بلدنا. هناك كثير من الوافدين من العالم الثالث، في مختلف المجالات، مدنيون وعسكريون، ومن مختلف المستويات والثقافات، والسلوكيات أيضا.

ـ لا تعتذري، يا رفيقة. فكل ما هنالك، أنني أردت أن أعيد تجربة ماياكوفسكي.

ـ مايكوفسكي كان حساسا جدا مثلك.

ـ هل عندك أخبار عن نتاشا؟

ـ أي نتاشا؟

ولم أعثر عن نتاشا في المطعم، ولا عن أخبارها، ولا عن أحد يعرفها، بل إن عجوزا شمطاء أسنانها مطلية بالذهب والفضة، يبدو أنها من بقايا العهد

القيصري، زعمت أنها هي نتاشا التي خدمتني البارحة والتي اعتنت بي بصفة خاصة، إلى درجة أنها قادتني إلى غرفتي، لأن الكمية الكبيرة التي احتسيتها من الفودكا، لم تترك في أثرا للتمييز، حتى أنني حاولت استدراجها مهددا بإلقاء نفسي من النافذة.

لم يبق من سفينة الحب التي ارتطمت بصخرة الواقع كما قال مايكوفسكي، وهو يضع حدا لحياته، ولا قطعة واحدة، يمكن التشبث بها.

النهاية كانت هنالك. كانت على يد نتاشا. وما سيحدث اليوم، سوى تكرار لصورة قديمة.

ملكتي. عزيزتي.

القناني اتكأت كلها على جنبها الأيسر. وأنا جاهز. وآت آت، أسرجت جواد الرحلة وها أنني آت.

***

تحامل. مادت به الأرض قليلا لكنه ظل متماسكا. تمكن من مغادرة الغرفة التي كان بها. تمكن من فتح المرحاض وقضاء حاجته دونما صعوبات كبيرة. ترنح وهو يتجه إلى الباب الخارجي. فتحه. صدمه الضوء لحظات. صمد. قرر أن يصمد فنجح.

كان الوقت عصرا، وكانت الشمس مع ذلك تحتفظ بحرارة قوية.

اتجه إلى مقر الملكة. كانت الحركة فيه على أشدها. نجح في فك أزرار قميصه، كما نجح في نزع القميص ورميه بعيدا عنه. خطا مترنحا عدة خطوات. جلس جنب الصندوق ومد يده يدق عليه.

خرجت الحارسات، كان عددها كبيرا، سرعان ما تبعتها الآلاف المؤلفة، قد تكون الملكة ضمنها وقد لا تكون.

غمرت صدره كله. غمرت ظهره كله. غمرت وجهه، لم يبق من جسمه العاري، قيد نحلة عاريا. اسود كما لو أنه طلي بالقار.

انتظر قبلة من الملكة. انتظر قبلات من خادماتها. استعد لها وظل ينتظر.

هبت نسمة، فشعر بأنها حملت معها دوارا.

استسلم للنوم، ليستيقظ مع الفجر فيجد نفسه في الحديقة نصف عار، والبرد يحز في عظامه.

ـ أنتحر بطريقة أخرى في المرة القادمة. احتقرتني الملكة عافت المشروب الأمريكي الذي يجري في دمي. ربما لم يبلغها أنني هنا برا بعهدي ووعدي.

قال وهو يتناهض.

شنوة الشاطئ

شاطئ بن حسين أوت 2002

أنف حنان

طالعة من بيت أبوها طالعة من بيت أبوها.

هذا فقط ما كانوا يتغنون به، بل إن طريقة غنائهم في حد ذاتها لا تسمح بالقول إنهم كانوا يغنون.

هتاف هتاف، وليس سوى الهتاف، ولكن مع ذلك يتهيأ لهم حسب اهتزازاتهم وما يبدو عليهم من طرب أنهم يغنون.

إنهم أشبه ما يكونون بالمتقيئين أو بالمصابين بالربو المخنوقين. يرفعون رؤوسهم ثم سرعان ما ينحنون، واضعين أيديهم على بطونهم مرة وعلى أكفلهم مرة أخرى.

عرفتهم كلهم، تعرفت عليهم واحدا واحدا، من أول لحظة، رغم تنكرهم، لا، عبارة تنكرهم في غير محلها إطلاقا، يبدون على طبيعتهم. ويبدو أنهم يباهون إلى حد التبجح بحقيقتهم. لكن لباسهم غريب، لباس نسوي زاهي الألوان مختلف الأشكال، ثياب عرس حقيقي، رغم أنهم لا يخفون ما يشير إلى ذكورتهم، مثل اللحى والشوارب، (كدت أقول رجولتهم) ، ذلك أن حركاتهم كلها حركات نسوية، يزغردون، يحركون بطونهم قداما وخلفا يمينا وشمالا، ويغمزون بأعينهم غمزا مريبا.

طالعة من بيت أبوها.. طالعة من بيت أبوها.

ما أن التقت عيونهم بعيني حتى هتفوا جميعا:

هو ذا العريس. هو ذا الكلب ابن الكلبة.

طالعة من بيت أبوها . طالعة من بيت أبوها.

قفزت من خلف أطفال وعجائز وبعض معوقين كانوا يصفقون على الإيقاع الرتيب العجيب، ورحت أركض بكل ما أوتيت من قوة.

ألحقوه. إيتونا به حيا أو ميتا. هو العريس الكلب ابن الكلبة.

كانوا أسرع مني. هكذا كانت نتيجة الهروب والملاحقة. تركتهم خلفي فوجدتهم أمامي. واجهوني وأخرجوا ألسنتهم، أين تهرب يا عريس الشؤم؟

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

أدخلوني غرفة مستطيلة، لا يزيد طولها عن ثلاثة أمتار، ولا يتعدى عرضها المتر الواحد، وأجلسوني جنبها.

هذا عريسك يا حنان.

كانت حنان ترتدي ثوبا ضيقا جدا، يغطي نصف صدرها ونصف فخذيها، نصفه أحمر ونصفه الآخر أخضر، أما رأسها فتغطيه قطعة قماش من حرير، سوداء براقة.

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

امتلأت الغرفة المستطيلة بالأصوات النكرة وبالزغاريد الغليظة، فأحسست برأسي يمتلئ بالمتفجرات.

ميم صاد راء. ذلك سبيلنا مهدناه للعالمين. وريريرييي.

قال عجوز يرتجف ذقنه ويتطاير لعابه.

قاطعه ثان بعد أن تلا حروفا لم أستوعب منها شيئا، قائلا:

أنتم السابقون ونحن السابقون وهم السابقون. طالعة من بيت أبوها.. وريرررريي. ولا عظم الله لكم أجرا.

كان قصيرا مستدير الرأس، خلاسيته واضحة.

أعقبه ثالث وبادر بعد أن أدى زغرودة، وكرر أغنيتهم: " فلما قضى زيد منها وترا زوجناكها"، صدق الله العظيم، وأمة خالدة، ذات عروس واحدة، والبقية في رؤوسكم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

ما أن تأخر حتى ارتفع صوت من بعيد صاحبه يلتحي ويضع عمامة سوداء غريبة الشكل على رأسه، رغم أن ملامحه ولدانية إلا أنه يقول كلاما لا يليق بالصغار: لن تطلع من دار أبوها ولن تذهب لدار أحد... وحق الله ما هي طالعة. كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وإن تنصروا الله ينصركم.. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحميد.. صدق الله العظيم.

وريرييري. طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

ثم التفتوا نحو الملتحي، تأملوا فيه قليلا ثم انحنوا دفعة واحدة وبصقوا كذلك دفعة واحدة عند أرجلهم ورفعوا رؤوسهم وانطلقوا بعد أن زغردوا يهتفون : طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

اقتحموا الغرفة المستطيلة، تبعهم الأطفال والعجائز والشيوخ، والمعوقون، بشكل تلقائي كانت الغرفة تؤويهم. كانت كالصورة تضمهم وتبين عن فراغ في الخلف وفي الجانبين، ولم أكن أشعر إطلاقا بضيق المكان، إنما بغرابة هذه الوضعية التي لأمر ما وجدتني عليها.

في الحقيقة كان إحساسي يقول لي إن الغرفة هي هي، لكنهم هم الذين يصغرون ويصغرون.

اغتنمت الفرصة، ما هيئ لي أنه الفرصة، وقفزت مستندا على كتف حنان، لأجد نفسي خارج الغرفة، في ساحة رملية، لكنها ملأى بالحجارة وأعقاب إطارات السيارات، وبقايا مزنجرات، وأقوام كثيرين لا يفعلون شيئا سوى الانتظار، انتظار أن يوجه لهم أحد التحية فيردوا عليه، بأحسن منها.

حاولت أن أقول لهم السلام عليكم، فاختنقت العبارة في حلقي، فلم يبالوا بي.

فجأة كان الملاحقون لي يسبقونني ثم يتحلقون حولي. تعملقوا دفعة واحدة بينما شعرت بأنني صغرت وصغرت إلى أن صرت قزما أمامهم. أمسكوا بتلابيبي وراحوا يرفعونني وكما لو أني فأر ميت ويعودون بي نحو العروس التي كانت واقفة في المدخل هاتفة: موش طالعة. اطلعوا انتم يا أولاد الغريبات. اطلعوا أنتم.

لفت انتباهي أنف حنان. كان شبيها بقرن وحيد القرن، وكان في حجم رأسها كله.

أصبت بالذعر. ولم تستطع عيناها المستديرتان الكبيرتان الهادئتان ولا بسمتها الخجولة المطمئنة، ولا صوتها الدافئ أن يقنعني بأنني في منأى من الخطر، أو من تواجد في وضع غريب ما سعيت إليه قط.

انصرف ذهني هنيهات، يبحث عما أوصلني إلى هنا، وما جعلني وسط هؤلاء الذكور المباهين بالتشبه بالنساء لباسا وحركات.

نسيت ما حاولت تذكره. داهمتني شبه غيبوبة، أعادتني إلى وضعي جنب العروس أتأمل أنفها.. وتمنيت من أعماق قلبي أن أعرف من أنا، أن أرى في مرآة ما وجهي فأتعرف على نفسي.

ها قد تحلقوا في الغرفة المستطيلة ومعهم مجموعة من الأطفال والشيوخ والعجائز والمعوقين بمختلف أنواع الإعاقة، بعضهم معوج الركبتين، بعضهم بقدم واحدة، بعضهم بلا أيدي، بعضهم بأيدي منقوصة أو مقطوعة أو مشوهة، بعضهم مطلي بالبرص من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، بعضهم يأكله الجرب بشغف، بعضهم، يسيل القيح من قروح في رأسه.

الغريب أنهم كلهم يشكلون مجموعة لا تتجزأ، مهمتهم أن يرددوا مع الثلة المتقدمة مطلع الأغنية الذي لا أحد فكر في أن يضيف إليه جملة أخرى، أو حتى كلمة واحدة. كانوا يترنحون طربا ويصفقون بحرارة.

عندما حاولت النهوض استبقاني أحدهم وكان عريض المنكبين على رأسه شماغ، فوقه برنيطة، أما شاربه فكان مصبوغا بحناء حديثة، ترك يده على كتفي والتفت نحو زملائه هاتفا: أيتها الماجدات. أمة واحدة ذات أنظمة خالدة.

وجه سبابته إلى صدره مرددا: يا نشامى. انتصرتم وستنتصرون.. والله أكبر كثيرا ولا حول ولا قوة إلا بالله.. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل.. صدق الله العظيم، والله أكبر كثيرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

دوت الأصوات وامتلأت القاعة، ولم تكن حنان تفعل سوى الاهتمام بأنفها ويبدو أنها شديدة الإعجاب والعناية به.

أطلق صاحب الشارب المحنى طلقة بارود من بندقية صيد كانت تحت عباءته، فارتفعت الزغاريد البشعة، ونظرت لأول مرة حنان إلي وهمست:

موش طالعة، والله مانا طالعة.

وما دخلي أنا، صحيح أنني بت على حلمي ذات ليلة شتاء حيث عدت بك إلى سن الثامنة عشرة، فكنت رائعة، بكل ما فيك رائعة، وكان أنفك يتخفى في باقي مكونات وجهك، في العينين المستديرتين السوداوين، الجميلتين في الخدين المنسابين في الذقن المنسجم مع الفم والعنق. لم يكن أنفك يا حنان ليلته يلفت النظر إليه كما هو الأمر الآن.

كيف فعلوا حتى يصلوا إلى حلمي ذاك. من أطلعهم عليه، بل، علي أولا وقبل كل شيء. أقول علي وأنا لا أعرف حقا من أنا لا في هذه اللحظة، ولا في لحظة الحلم بحنان تلك.

لقد كانت زوجتي نائمة، وبين النوم واليقظة، تعمق حلمي معك، يا حنان.

عادة ما ينسى الناس الأحلام من هذا النوع، ويجددونها بأحلام أخرى شبيهة بها، لكن لم أنس، وهم أولاد الكلب والكلبة، عرفوا، ذلك، وخزنوه، وها هم يعاقبونني به.

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

اسمع يا أخ من حلم خان. من تزوج خان. من ظل أعزب خان. من مات خان. من ظل على قيد الحياة خان. من استرجل خان، والبيت لساكنه، وحنان تطلع من بيت أبوها.

طالعة من بيت ابيها. وريرريري..ري

كان يبدو كالمختن حديثا، يرتدي جلبابا فضفاضا لازورديا، ويعتمر كوفية من نفس اللون، مستديرة ومزركشة بشتى المعادن.

يتنفس بصعوبة، ويبدو أنه بذل جهد كبير في تمليس وجهه.

كان وضعه شاذا بينهم فلا هو بالمتشبه ولا هو بالمتنكر، ولكنه يغني غناءهم.

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

أريد أن أهرب مرة أخرى. أريد أن أتكلم، أن أجد فسحة بينهم فأقول لهم ما أفكر فيه، لكن لا فسحة عندهم. إن لم يغنوا، يزغردون، إن لم يزغردوا يتقدم أحدهم فيخطب علي وعليهم.. إن لم يفعلوا كل ذلك انهمكوا في التصفيق.

لن أتزوج من حنان، أو على الأقل لن أتزوجها وهي بهذا الأنف.

ليفعلوا بي ما يشاءون، فما داموا راهنوا علي فليكونوا رهينة لي. إنما كيف أتمكن من تبليغهم هذا الكلام.

في هذه الأثناء، لربما قبلها بقليل أو بكثير، تقدمت مجموعة منهم نحوي. كانوا يشبهون الجرذان، في قصر قامتهم، وفي اللباس الداكن الذي يرتدونه، وفي أحجامهم. وفي شواربهم أو لحاهم، وفي كل حركاتهم. يمكن أن يعجنهم المرء، فيستخرج منهم شخصا واحدا، ويضع على رأسه قطعة قماش بيضاء وعقالا فيقول هم ويفهم الجميع ما المراد بهم. لربما لهذا السبب، هم لا يفترقون. قلت في سري.

يطعمنا من جوع، ويؤامننا من خوف. رب البيت الأبيض عليه الرضا والرضوان، وعلينا السلوى والسلوان...

طالعة من بيت أبوها. طالعة من بيت أبوها.

كانوا خمسة، اقتربوا مني إلى درجة أن حنان، وضعت يديها معا على منخريها، تتفادى رائحة غريبة تنبعث منهم.

في تلك اللحظة، أشفقت على حنان من أنفها، ولكن تساءلت في نفس الوقت، كيف يكون حالها عندما تصاب بالزكام، وانساق ذهني في التفكير في الأنوف، وكيف فصل الخالق فيها، حتى جعل بعضها لا ترى وبعضها الآخر يبلغ أمتارا، وابتسمت رغم وضعيتي الغريبة التي لا أعرف سببها ولا مخرجا منها، كيف يكون أنف الياباني أو الفيتنامي وهو وليد؟..

طالعة من بيت أبوها، طالعة من بيت أبوها.

استرقت النظر إليها، التقت أعيننا، فهمت أنها تتوعدني، وأن سلاحها الذي ستقضي به علي هو أنف وحيد القرن هذا.

استندت بيدي على المقعد الخشبي الطويل المطلي بالأخضر الذي نجلس عليه، محاولا النهوض إلا أن أحدهم تقدم مني مرسلا زغرودة، رغم أنها من ذكر فإنها هذه المرة تتميز بليونة.

طالعة من بيت أبوها.

قلنا منذ اليوم الأول، قالها المجاهد الأكبر، سلم تسليم، و«الراس اللي ما تقطعوش بوسو أفضل».

وريريرري.

ليس له لا شارب ولا لحية. أملس، أملس، تلمع بشرة وجهه بالدهون، ويشع شعر رأسه المصبوغ، باللمعان أيضا، يرتدي جبة مطرزة بالحرير من مختلف الألوان، وكانت علامات الرضا والاطمئنان تطفح من كل حركاته.

إن عدونا يهدف أول ما يهدف إلى زعزعة نظمنا العتيدة.

طالعة من بيت أبوها.. طالعة من بت أبوها.

تحركت حنان فبلغ أذني صوت سلسلة، تثبت، فإذا بها مقيدة من رجليها ويخفي ثوبها سلسلة تلف بطنها، وترتبط بالمقعد الطويل الذي تحتنا.

يا مجانين، يا بهاليل، يا أنتم. ما الأمر.

هيهيهي، يا أخ.

أجابوا كلهم، فهتف من وراءهم ومن يحيطون بنا.. هيهيهي يا أخوات.

استطعت النهوض، وبادرتهم دون أن أتأكد من أن صوتي سيبلغ آذانهم في حمأة غنائهم القذر، طالعة من بيت أبوها.

اسمعوا إذا قلتم لي من أنا، وماذا تفعلون بي تزوجت حنان.

هيهييهي يا أخ موشي.

ماذا؟

هيهيي يا أخ بن غوريون.

أيها المجانين.

هيهيهيي يا أخ غولدا ماير.

يا حيوانات.

هيهيهيي يا أخ إسحاق.

ما ذا تقولون.

هيهييهي يا أخ نتانياهو.

نطق أحدهم بالتاء كاف، وهو يمسح على صدره.

أيها الحمقاء.

هيهييههي يا أخ براك.

ما الأمر يا ناس؟

هيهيههيي يا أخ سي شارون.

في تلكم اللحظة، اهتزت حنان، تحاول تحدي السلاسل والنهوض، صارخة كأنها مطعونة.. يا أولاد الكلبة، من قال لكم زوجوني؟

تتزوجينه رغم أنفك يا حنان... وطالعة من بيت أبوها... وطالعة من بيت أبوها.

أخ سي شارون، نظرت إلى نفسي، وقلت، قد يكون الأمر صحيحا، وفي هذه الحال أقطع أنفها وأتزوجها، وأحقق الحلم الشتوي.

لاحظت وأنا أتأمل أعضائي وأطرافي أنني أتضخم وأتضخم، غير أنه كلما ارتفعت قامتي، وغلظت أعضائي كبر أنف حنان.

أشرت بيدي أن صه، فنزل الفانتوم على رؤوسهم:

اسمعوا يا أولاد العواهر، اقطعوا هذا الأنف وأقيموا العرس. أتزوجها، وأتزوج كل أمهاتكم وكل نسائكم، وأتزوجكم حتى أنتم، إن شئتم.

هيههيي أخ سي شارون.

نحن مع حنان عازبة أو متزوجة. قلنا هذا وأكدناه للأخ باراك. ونحن أمة ذات شعوب عديدة وأنظمة مديدة. ولنا ديموقراطية حقيقية. ولغتنا هي العربية وإن تحدثت إليكم بالفرنسية.

وطالعة من بيت أبوها... وريرريي.

لقد زوجناكها يا أخ موسيو شارون.

كان من شدة قصره، يظن أنه طويل، ومن شدة جهله يظن أنه كيسنجر العرب، ومن شدة عجزه، يتوهم أنه نابليون.

حمت الزفة، وتدخل طبل من هنالك، لا يظهر صاحبه، لكن صوته قويا وإيقاعه مع المجموعة واضح جدا.

تبين أن هناك عدة طبول، وليس طبلا واحدا، تتقدم بها كوكبة، من الرجال، يرتدون تنورات، رؤوسهم حليقة حاسرة، وعلى أعينهم نظارات سوداء. في مقدمتهم جميعا، شيخ هرم، يفتعل ابتسامة، لا يتمكن فكه الأسفل المرتجف من الاحتفاظ بها كثيرا، يرتدي بذلة عسكرية ويحتزم بمسدس وعلى رأسه شماغ، حسن الترتيب بذل جهد كبير في العناية به.

توقف مكانك.

قلت، فبادرني، بصوت ودود، فيه قليل من الصرامة الكاذبة:

جئتك بمهرها يا أخ سي شارون... ننهي المسألة، وكفى الله المؤمنين شر القتال، في هذا الظرف، قائمة بكل من خطبها، في الداخل وفي الخارج، في الشرق وفي الغرب، لم أفلح في اجتثاث دابرهم، فهاكهم، تول أمرهم بنفسك، وطالعين من بيت ابونا.

طالعه من بيت أبوها.

تقدم أقوام آخرون، قالوا كلاما لم يكن ليعنيني فقد سمعته قبل اليوم، مرارا وتكرارا.

وقفت. تأملتها موثقة مغلولة، قابلني أنفها المستفز، قلت ماداموا قد زفوها، فليتمموا مهمتهم.

اسمعوا يا أولاد العهر، إذا لم تقطعوا هذا الأنف، قطعنا أرزاقكم.

لم أتم الجملة حتى هجموا عليها. لست أدري من أين استخرجوا السواطير والمناشير وبعض آلات خاصة بهم.

رن الحديد، طقطقت السلاسل، وراح هيكل حنان يكبر ويكبر، تجاوز جدران الغرفة المستطيلة. شرخ السقف، وامتد عملاقا في السماء.

تحول إلى تمثال عظيم من البرنز ولربما من مادة غير معروفة.

أيقظتني زوجتي قائلة، من حنان هذه التي كنت تهتف باسمها.

لقد عجزت عن إطفاء التلفاز. وكانوا يصرخون. قلت وأنا ألهث من الرعب.

شنوة ـ شاطئ بن حسين

أوت 2002

يوم مشيت في جنازتي ومشى الناس

لست أدري كيف كان موتهم، وكيف سيكون موتكم أنتم، أما موتي أنا فقد كان أعجوبة الأعاجيب... فيلم خيالي من أفلام هيتشكوك، أو من أفلام العلم المستقبلي.

كنا ثلاثة أطراف في العملية، الموت، أنا، الناس.

الموت، يجلس عند رأسي، حائرا فيما سيفعل، فقد نفذ أمرا، اكتشف أنه، نفذه قبل أوانه.

أنا ممدود في نعش أخضر أحضروه من المسجد، لم يجف الماء الذي غسلوني به، بعد... ذلك أنهم لم يكلفوا أنفسهم إحضار منشفة، من المناشف العديدة التي كانت في خزانة الحمام، بعضها أبيض، بعضها وردي، بعضها، أزرق باهت. نسيت أنني لست في بيتي.. المعذرة.

الناس يروحون ويجيئون قلقين، كما يدل استطلاعهم للساعة بين لحظة وأختها، يتوافدون الواحد تلو الآخر، مبدين في الأول بعض الحزن، ثم سرعان ما ينسون المناسبة والمقام، فينخرطون في حديث تافه، أغلبه يتعلق بمن حضر من الرسميين ومن لم يحضر، ومن يمكن أن يحضر، فالمناسبة هامة، وليس أدل على ذلك من حضور طاقم التلفزة، وكثير من ناس الصحافة والإعلام المختلف، وكل

الزملاء الكتاب، حتى أولئك الذين لم نتبادل كلمة واحدة، منذ ما يزيد عن عشرين سنة، حتى أولئك الذين كتبوا في تقارير سرية، ومقالات علنية يطالبون بنفيي، أحيانا، وبإعدامي أحيانا، وباعتباري منحرفا اجتماعيا، فمكاني الوحيد هو الصحارى والسهوب للعمل مع مجرمي الحق العام في اقتلاع الحلفاء، حتى هم حضروا ويبدو عليهم الحماس للتقرب من المتقربين من جثماني أكثر من غيرهم. الدكاترة، أساتذة الجامعة الموقرة، كان حضورهم بينا لا يمكن إطلاقا عدم الانتباه إليه، فهم عادة لا يظهرون إلا بمحافظهم المنتفخة، واليوم بالذات، تجلت المحافظ بشكل غير عاد.

كان الجميع يتوجهون بالعزاء للسيد الوزير والسيد الكاتب العام للوزارة، والسيدة مديرة الديوان، دون السؤال عما إذا كان هناك أحد من أهل المرحوم الذين يتقبلون العزاء.. الحق يقال، كان الوزير ومن معه من وزارته ومن زملائه الذين سبقوه في هذه الوزارة، وقد استنفروا جميعهم، أحسن من يقدم له العزاء، فقد كان الحزن يطفح من النظارات السوداء التي تغطي أعينهم، أما أهلي فقد كانوا على قسمين، قسم النساء، بقي في المنزل يهتم بالمعزيات من أهل الحي، وبما سيفعل مع الدائنين وبالصحف القديمة والكتب والمجلات المتناثرة في كل ركن من أركان البيت، والتي كثيرا ما كانت مصدر خلاف عائلي حاد. وقسم الرجال الذين حضروا مباشرة من المطارات، إلى المستشفى أولا ثم إلى قصر التكريم، حيث أتمدد على ظهري في النعش الأخضر، وسط القاعة الكبرى للقصر، وحيث يطغى صوت المقرئ، على أصوات السادة والسيدات، المودعين والمستقبلين.

أهلي الذين كانوا هنا، غلبهم الانبهار بما يجري، فاعتراهم الشعور، بأنهم في عرس وليسوا في مأتم، وقد سرهم ذلك أيما سرور، ما جعلهم يذوبون، ويزدادون

إحساسا، بأن كل هذه المكانة التي ما كانوا إطلاقا يتصورون أنني أحتلها، لا شك أنها دليل على ثروة كبيرة تركتها، وسينالون من التركة، ما يزيد في محبتهم لي، حيا وميتا، سيستفيدون، لأشهر عديدة، إذا ما قصدوا إدارة، لغرض ما، أو إذا ما ارتكبوا مخالفة فأوقفهم الشرطي أو الدركي بالتأكيد.

كيف مات؟

كان هذا السؤال، أكثر ورودا وترددا على الألسن، بعضهم يطرحه استغرابا، وبعضهم يطره حسدا وغيرة، وبعضهم يطرحه وشاية، وقليل من يطرحه فضولا، ومع أنهم مجمعون في قلوبهم، على أن هذا البهرج الذي يرافق جنازتي، في فائدتهم أكثر مما هو في فائدتي، فإنهم مع ذلك يرون، أنه لولا السياسة، ولولا الظروف العامة، المحيطة بالنظام، وبالصحافيين والمثقفين عامة، لما كان أحد يعيرني العشر من هذا الاهتمام.

مع ذلك كان الثناء على النظام وعلى السيد الوزير وعلى كاتبه العام والسيدة النشيطة مديرة ديوانه، كبيرا، لدي جميع الحاضرين، فمثل هذه الفرص التي يخرج فيها المثقفون من جحورهم نادرة، إذ أن عمر الشاقي باقي، وعمر الكلاب طويل كما يقول المثل، والأدباء والكتاب والمبدعون عموما، مع قلتهم، فإنهم مصممون على أن لا يموتوا إلا في أرذل العمر، حتى ينساهم الناس، ويفقد وجودهم لمعانه.

يقال إنه مات مقتولا على يد إرهابي.

غير الموضوع، رجاء، فالأيادي عديدة والموت واحد.. غير الموضوع، فالين اليابان في أوج ارتفاعه. والمسجلات شغالة.

قال آخر لمن يقف معه:

أمات بالرصاص أم ذبحا؟

يقال إنه اختنق بالغاز. لم يكن أحد في المنزل ساعة موته.

المعلومات التي عندي تقول إنه مات خارج منزله.

المهم أنه مات والسلام، والأعمار بيد الله.

بينما كان اثنان ينسحبان خارج القاعة، ويتهامسان...

تقول ممرضة، صديقة لنا، إن الرصاصة سكنت رأسه، وإن الطبيب الذي عاينه، رغم أنه أجبر على إعلان الوفاة، إلا أنه ظل يردد أن الموت الإكلينيكي لم يتحقق بعد.

هددوه، إلى أن وقع على وثيقة الوفاة، إلا أنه ما أن انصرفوا حتى اقتحم القاعة التي ينطرح فيها الفقيد، فأخرج الرصاصة، خبأها في جيبه، ثم قدم بعض الأدوية له.

تقول، ظل الطبيب، مقتنعا بأن المرحوم حي وأنه لربما يسمع ما يقال حوله، ويدرك وضعيته، ولربما يفكر. فعندما يتوقف كامل الجسم، تعود إلى المخ طاقات لا حدود لها. لقد ظل الطبيب، يتردد على القاعة وفي كل مرة، يراجع النبض، ويطيل في ذلك، وعندما اقتحمت الشرطة، غرفة الإنعاش، واستولت على الجثة، سمع عن الطبيب، أنه قال، ستدفنونه حيا، فاصطحبوه معهم عنوة، ولم يظهر بعد.

«إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» أبرز المقرئ الآية، بل إنه كررها ثلاث مرات، في نبرة تهديد ووعيد، أكثر منها نبرة تلاوة على قراءة ورش ونافع.

متى قتل؟

الظاهر أنه ضرب اليوم مع الفجر. بعد أن اختفى منذ يومين، وقد أخبر أهله بموته أمس وطلب منهم الحضور للجنازة التي تتولى الدولة إقامتها، وعندما طلب

أن يدفن في قريته، ردوا عليهم بعنف، بأنه سيدفن مع المكرمين، في مقبرة المكرمين، فالبلد ليس فيه الكثير من أمثال هذه العبقريات.

ضرب تقول؟ المسألة رصاص إذن؟

«يجعل قال على من قال» هناك قول آخر، يزعم أنه شك بمادة مجهولة، وأن الطبيب اهتدى إلى معرفتها، وأنه عالجه بمضاد يأمل أنه سينقذه. ما تؤكده المرضة أنها سمعت الطبيب يقول بعظمة لسانه «ستدفنونه حيا» وانه، الطبيب، ما يزال في قبضتهم.

كنت أشعر بوجوده عند رأسي، الموت، بل إنني كنت أراه في شكل شخص يرتدي لباسا عسكريا، ويحتزم بعدة مسدسات وكلاشات، وأربجيات، وخناجر وسيوف، وقنابل على مختلف الأحجام والأشكال وطائرات كذلك.

تمنيت أن أسأله، عما إذا كانت ساعتي قد حضرت فعلا، وأن المغادرة قد حانت ولا رجعة في ذلك، أم أنها لم تحن، وأن المسألة بين البينين، وأنه سيظل هكذا عند رأسي مدججا، لربما ساعات، ولربما أياما، ولربما شهورا.

فهمت في بداية الأمر، أنه قال، إن هناك خطأ ما وأنه قام بمهمة لم يكلف بها. أتمنى أن تحل الإشكالية على خير، قلت في رأسي، وقد بدأت أحس ببعض الدفء يراود جسدي.

مهما كان الأمر، فالموت لا يعني شيئا للكائن، ولولا الوجع الذي، يحصل بسببه، لما فرقنا أبدا بين أن نكون هنا أو لا نكون. وإذا حدث وحصل الوجع، فالأحسن أن يموت المرء بأسرع ما يمكن.

الوجع هو ما نخشاه من الموت. وما يحدث لي هو أشق أنواع الموت... ذلك أنني هنا ولستِ هنا. هنا أسمع كل ما يقال حولي على بعد مئات الأمتار، بل

إنني بمساعدة روحي التي تطوف بالمنطقة كلها، وتتأمل وجوه الحاضرين والحاضرات، أستطيع حتى قراءة ما في رؤوسهم.

توقف المقرئ عن التلاوة. أمر بذلك. طوى المصحف ووضعه في محفظة كانت معه، تحت الكلاشينكوف. حاول أن يخفي الكلاش قدر الإمكان، لكنني رأيتها، وأستطيع حتى أن أعدد أرقامها.

اكتمل الجمع. حضر كل من أعلم بذلك من أهل الفكر والفن والثقافة، ومن الوزراء والوزيرات السابقين والسابقات، أكثر من ذلك، فإن رئيس حكومة سابقا، ما أن سمع الخبر في الإذاعة، حتى تلفن يستعلم عن مكان انطلاق الموكب، وموعده، ومقبرة الدفن، ثم انطلق.

ظل يردد، كنت أتوقع ذلك، وأذكر أنني حذرته مرة منهم. ربما لا يحب، لكنه يستحق الاحترام. خصم عنود وشريف.

انطلقت الطويوطا الخضراء، يحيط بي بعض الأقارب، ومعهم كاتب وأستاذ جامعي، وصحفي كان يحبني، وكان الوحيد الذي ذرف دموعا علي.

تلي الطويوطا سيارة التلفزة، بكاميرتها الشغالة والمركزة على معاليه، ثم سيارة معاليه، والموكب الوزاري باختصار، وكان المقصد مقبرة المكرمين، أولئك الذين يشرفون الوطن الحبيب بشكل أو بآخر.

شيوعي كلب، لولا الظروف، لما مشى في جنازته، حتى أقرب الناس إليه.

كتاباته تافهة ومعظمها سرقه من الكتاب الروس والبلغار والغربيين بصفة عامة.

أنا واثق من أن أمثال هؤلاء يكتب لهم أسيادهم، وهم لا يفعلون سوى وضع أسمائهم.

أما الترجمة فحدث ولا حرج. لا تستطيع أن تكون كاتبا مقروءا في لغة أخرى، حتى وإن كانت لغة قبيلة بالوبا إلا إذا كنت حمارا أحمر.

معك حق.

إسلاموي كلب. لقد كتب يدافع عنهم، ويدعو إلى غض الطرف عنهم والسماح لهم بالوصول إلى السلطة.

هكذا إذن.

وأكثر، الوحيد الذي فلت من الموت على أيديهم، لو لم يكن من قادتهم، وهو الذي يأمر وينهي، يأمر بقتل ذا وتجاوز ذاك... راسبوتين خبيث، ما عرفت البلاد مثله.

لكن ها هم قد قتلوه أخيرا.

من يدري؟ فالكلاب شعوبا وقبائل، تيارات، وعصابات، وأرهاطا، ومن يدري فقد يكونُ على علاقة بمافيا ما ومات على يدها، لربما، ولربما.. أمثال هذا الرهط، تجوز فيهم ، ربما، بكثرة.

لربما.

هل قرأ ت له شيئا؟

أعوذ بالله. أقرأ لهذا الملحد الداعر. أقسمت أن لا يدخل كتاب له بيتي. لن ألوث مكتبتي، بأفكار هذا الرجل. لن أجعل أولادي وبناتي عرضة لأفكاره السامة.

لكن كيف تحكم عليه؟

سيماهم في وجوههم يا رجل. تكفي عناوينه، لوضعه في الخانة التي يستحقها. المزبلة.

لكن الناس يحبونه.

الرعاع يحبون حتى الرهج. خالف تعرف.

والله. ثم والله العلي العظيم، لولا أن الوزير شخصيا، ترجاني أمس أن أتولى تأبين الرجل لما جئت ولما حضرت، ولما مشيت في جنازة هذا الكلب.

تؤبنه.

نعم وللضرورة أحكام.

يا أخي كما قلت لك، في القصر، الخيط الوحيد الموصل لموت الرجل، بعد الطبيب المختطف، الممرضة، وإنني لأخشى، أن تختطف بدورها إذا ما استمر لسانها في اللوك. الموت في هذا الزمان لا يعني سوى الغياب، ثم النسيان. كم يغيب الناس، وكم ننسى بسرعة.

هل أعددت التصريح الذي ينتظره الصحافيون.

سأل معالي الوزير الأمين العام، فبادرت مديرة الديوان:

التصريح عندي، إنما أردت أن اسأل معاليكم، هل نوزعه مكتوبا، أم تقرؤه، أم تقول فحواه لا غير. أرى يا معاليكم، كما يرى السيد الأمين الغام، أن تقول كلمات أمام الكاميرا وينتهي الأمر.

طبعا بعد الصلاة والتأبين والدفن.

أضاف الكاتب العام.

ساد الصمت قليلا، ثم بادر معاليه:

لربما يحضر الكبير. لربما يحضر الأكبر منه، فالمناسبة، كما نرى مهمة، وقد عكر الأمر، «حضور رئيس الحكومة الأسبق».

هذا الرجل لا نفهمه. لا ندري مع من هو. ليس بطيخا، وليس خيارا ولا فقوسا. ليس شيوعيا، ولكن يردد نظرياتهم في التطبيقات الاقتصادية، كاد يخرب البلد، لو لم يطرد شر طردة. لم ينضم للجنة إنقاذ الجمهورية، ومع ذلك لم يعلن تأييده للكلاب.

لا هو طين ولا هو فخار... ما الذي أحضره، لو لم يكن ذلك تشويشا على الحكومة، وإيحاءا للناس، بأن جزءا مهما من هذا الكاتب الحقير لا يعني الحكومة، ولربما يريد بهذا الحضور المتطفل أن يقول للناس كلاما آخر.

أعتقد أن هذا هو الهدف الحقيقي، فهؤلاء الناس، لا يتحركون فرادى، ولا بشكل غير منظم.

كيف استطاع هذا الانسان أن يكون رئيس حكومة. إنه زمن الرداءة فعلا.

أضاف معاليه، وكان قد نسي تمام النسيان أن من عينه، هو هذا الذي يتحدث عنه بهذه الصفة، وبالتأكيد لو ذكره أحدهم بهذه الحقيقة، لقال بأنه استنجد به، ولولا استحقاقه وأهميته، لما بقي بعد ذهابه هو.

ثم إن الفارس من ركب اليوم، كما تقول العرب.

كنت أحس بالدفء يعتري جسدي، كلما اقتربنا من مقبرة المكرمين، رغم الطقس البارد الذي كان سائدا، حتى أن أحدهم علق قائلا، نهار مثل اليوم، لا يموت فيه إلا اليهودي. سنبتل في المقبرة، بل إن فرصة التسليم والتقديم والتعرف، تكون محدودة جدا جدا.

مزعج حيا وميتا.

غير أنه ما بلغنا المقبرة، حتى بزغت الشمس، فتنفس الجميع الصعداء وانهالوا على بعضهم يسلمون بحرارة، ويضربون أكتاف وظهور بعضهم ضربات خفيفة لطيفة، حتى أولئك الذين كانوا بالأمس مع بعضهم، كأنما اليوم يوم عيد.

حضر أقوام آخرون لا أعرفهم، وقفوا جانبا، مبتعدين عن المحفل الرسمي، بعضهم بلحى، سنية وبعضهم الآخر بلحى غيفارية، بعضهم يتجلبب، بقمصان طويلة مختلفة الألوان، وبعضهم يرتدي سراويل جين وقمصانا زرقاء، بل إن

بعضهم تجرأ ووضع رباطة عنق حمراء في عنقه، في حين وضع بعضهم قبعات حمراء على رؤوسهم. كان تحديا صارخا، من هؤلاء وهؤلاء.

اقتربت منهم. كانوا يترحمون علي، وكانوا كلهم مجمعين في سرهم وعلانيتهم، على أن قتلتي هم هؤلاء الذين جاءوا يشيعون جثماني، ويدفنون معي كل تحد، وكل إصداح بالحقائق ولو أن الدنيا دنيا، لألقي القبض على جميعهم، بما في ذلك هؤلاء السدنة البارعين في تقبيل خدود أسيادهم، والله، لو استيقظ المسكين لأشار بإصبعه إليهم هاتفا:

أيها القتلة، إليكم عني.

الكبير لا يأتي، ولا الأكبر، لقد تسربت معلومات، تفيد بأن مجموعة من الرعاع المشوشين، استبقوا إلى المقبرة، لتدبير مظاهرة. ها هي طلائعهم.

جاءت البرقية الشفوية لمصالح الأمن، فتنفس معاليه الصعداء، والتفت إلى مديرة الديوان يسأل عن طقم التلفزة، وهل أنهى مهمته في التقاط الاستجوابات والشهادات حول المرحوم، فطأطأت رأسها بتأن بالغ، أن نعم معاليكم، والأمور على ما يرام، فكونوا مطمئنين.

شملني دفء عام، وأحسست أن عروقي تتدفق دما، وأن قلبي يخفق.

لا شك أن دواء الطبيب المسكين فعل فعله.

قلت وهممت أن أنهض، غير أني استسلمت لغفوة لذيذة، لا هي بنوم ولا هي بدوخة، سرحت فيها روحي، كأنها فراشة، مع مخلوقات لطيفة في رقة النشوة التي تبعثها رائحة عطر خفيف لا يدري المرء أيأتيه شمالا أم يمينا.

هذه جبال هملايا بقممها وروابيها بثلوجها وبأوديتها، هذه بحيرات إفريقيا، بكل كائناتها وأعشابها، هذه جبال الألب، بثلوجها وبصخورها الجرداء. هذه زهور ونباتات ما رأيت مثلها هذا مريخ ، وهذه الزهراء، وهذا عطارد.

واحدا من تلكم المخلوقات، كنت. بل أحيانا، أندمج فيها، وتندمج في، فأكونها جميعها، مع إحساسي بأنها معي تأخذ بيدي وتثب مرددة:

نحن بناتك.. نحن أفكارك.. نحن رؤاك.. نحن المحبة والخير...

نحن البقاء، الصفة التي وهبك الله، كي تبلغ رسالتك.

نحن الماضي.. نحن الحاضر.. نحن الأزمنة التي ستتعاقب.

وجدك يتيما فآوى. وجدك عائلا فأغنى. وجدك ضالا فهدى.

حباك فأعطاك.. يذهبون فتبقى.

واحدة منهن التصقت بي. وضعت كفيها اللطيفتين على خدي، وجذبتني نحوها، كأنما ستقبلني، فاعترتني قشعريرة، وتأهبت، لاحتضانها.

أنا زوجتك الأبدية.

كان رحمه الله...

ظل مؤبني، يلوك فعل كان، ويستنجد بكل العبارات البليغة، التي لا تعترض مع النشرة الخبرية، والصفحة الخاصة التي ستعد بهذه المناسبة الأليمة.

***

إنه يتحرك.

همس أحدهم في أذن صاحبه، فركز الإثنان نظريهما حولي.

انظر إلى وسطه. شيء ما يتحرك هناك. هناك تحت السرة.

اقتربت زوجتي الأبدية مني أكثر. أثارتني، الحق أقول. أحيت في كل العروق.

كثر الهمس، بينما مؤبني مغمض العينين، متجاهلا للورقات التي دبجها البارحة.

كان رحمه الله.

الله أكبر. الله أكبر.

هتف الناس عندما امتدت يداي... أحتضن زوجتي الأبدية وأحتويها.

ومشوا هاربين... مشوا هاربين، بما فيهم قتلتي ومؤبني.

شنوة: شاطئ بن حسين أوت 2002

علم دولة الزعبطيطو

مستاء. مستاء إلى حد لا حد له.

لذا أصابني الليلة أرق لا يعالج.

كيف لا أعرف، أنا ، أنا ابن عصري، المزامن المواكب، لكل ما جرى في عالمنا منذ ثمانين سنة.

كيف لا أعرف لون علم هذا البلد؟ أهو أحمر وأبيض وأزرق؟ أهو أزرق وأحمر وأبيض؟ أهو أبيض وأحمر وأزرق؟ ثم لماذا هذه الألوان بالذات، فهناك الأخضر كما هناك الأصفر، وغير ذلك من الألوان الخلاسية؟

كل ما في علمي المتواضع، أن اللون الأحمر يعني دم الأموات، وأن اللون الأسود يعني حزن الأحياء، كما أن اللون الأخضر هو لون الآخرة السعيد. أما الأصفر، أما الأزرق، أما الأبيض فلا فكرة لي إطلاقا إطلاقا على دلالاتها ومعانيها ، حتى وإن زعم الزاعمون أن اللون الأبيض يعني السلام، بدليل أن من يستسلم في معركة يرفع أو يقال عنه إنه رفع العلم الأبيض.

يعني الجنوح، إلى الاعتراف بحق الآخر فيما لنا حق فيه، أو فينا يفعل بنا ما يشاء، عدا القتل في تلكم اللحظة.

أقول الحق. كل الحق ، وأنا في هذه الحالة من الاستياء، والأرق، والحزن أيضا، والمسألة كلها بيني وبين نفسي، لا دخل لثالث فيها، في هذا الزمن الذي

يمكن تصنيفه بأنه، زمن حضور الثالث الدائم بين الواحد والواحد، وبين الإثنين، بهذه الصفة أو بتلك، خاصة «بـــتلك».

هذا الزمن الذي يحبذ الناس وصفه بزمن الحرية والديموقراطية.

أستسمح المستسمح، وهو ليس سوى ضميري، باستعمال تعابير سياسية في غير المقام السياسي ، كما هو واضح، ومؤكد. فمن أين لأحدنا، وأنى له تجنب السياسة، في زمن لا شيء فيه سوى السياسة.

(هذا أمر آخر، والمهم في هذه اللحظات التي يأكلني فيها الاستياء والحزن والأرق، ما هو لون علم هذه الدولة؟

لعل ترتيبها هذه الألوان اللعينة، يذكرني بها مجتمعة.

لنقل دم الأموات. كل الأحياء يستعملون الأموات. يعني الأحمر، ثم لنضف كمية من حزن الأحياء، والمفروض أن نعتمد الأسود، لكن ربما الازرق، يقوم مقام هذا. ربما، ربما. من يدري ؟ ثم ليجيء الاستسلام. لنرفع الراية البيضاء التي تنعدم إطلاقا.

السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... هأه، هأه،، إن شاء الله، إن شاء الله.

لا . ليجئ الأخضر، فمعظم ضحايا القتل، إنما هم ضحايا الحروب من أجل الله.

من هي، أستعمل من بدل ما، أقول من هي هذه الدولة الشهيدة الحزينة المؤمنة أو المسالمة؟ هل لها وجود.

ربما.

هأ.. ههههأ.

لا تضحك إلا على نفسك... رجاء رجاء.

كانت من كانت. وكانت ما كانت. لتذهب إلى الجحيم، وعلي أنا المستاء الأرق الحزين، علي السلام والأمن والطمأنينة، وثقل الجفنين، ثم النوم . آه النوم. آه يا نوم، وإني لمستسلم.

ها هي قطعة القماش البيضاء ترفرف في الفضاء.

لا شك أن تاريخ الأعلام والألوية، ثقافة في حد ذاته، ترتبط بأسماء كبيرة، أمثال الإسكندر الأكبر، وخالد بن الوليد وطارق بن زياد، ونابليون، وصلاح الدين الأيوبي... و، و..

اختصرتها في الأشخاص وأسمائهم، بينما هي ولا شك، أبعد وأعمق، من كل فرد.

لعل العلَم، هو أول لغة خطاب بين جماعة وأخرى؟

من يدري.

فأنا المسكين، العبد لله، الفقير إلى الله، رغم معاصرتي لأحداث زمني، بحكم أنني هنا، وأنها، هي، أيضا هنا.

حروب فرنسا، في كل مكان، كنت فيها، وكانت ذاكرة حية بالنسبة لي.

حلب الشام.. واتيرليت.. ديان بيان فو.. لينينغراد.. ستالينغراد.

حروب الأنقليز، حروب الألمان، حروب الروس، حروب الأمريكان، حروب الهولنديين، الفيكينغ.. المجاهدون، الإرهابيون.

الحروب الحديثة، حروب القرنين الأخيرين، وحروبنا الغابرة. أمجادنا منذ قابيل وهابيل، إلى الغبراء، إلى البسوس... إلى.. إلى...

أستطيع أن أروي تواريخ الحضارات الكبرى، وأسعار اللحم البشري، في حصار القدس أو في حصار تلمسان.

أسعار الفخذ .أسعار الكتف . أسعار الأضلاع . أسعار الرقبة . إلى غير ذلك .

كما أستطيع تحديد أطوال الحبال المفتولة بشعور الفنيقيات، وأرطال الملح التي زرعها الرومان كي لا ينبت زرع في أراضي قرطاج .

طبعا. لست مؤرخا، وعذري أن هذه المعلومات عامة، ولا تحتاج، إلى مؤرخ، أو إلى تأريخ.

إنها كحكايات الأسلاف تنتقل بالوراثة، من جيل لآخر.

أنا مجرد مواطن هذا العصر . أرقه عدم تذكر ألوان علم دولة معينة.

أستعرض ألوان وأشكال الأعلام كلها. معظمها، يعني. كل ما استطاعت الذاكرة الاحتفاظ به، وأبادر للمصارحة، بأنني أفعل ذلك في الظلمة. ومهما فتحت عيني، فإن الأمر لا يتعدى الخيال والتصور الذهني.

كما أبادر إلى القول، بأن المرء في الظلمة، يعسر عليه أن يستحضر أكثر من لون في اللحظة الواحدة. ويفضل الأعلام وحيدة اللون.

الأبيض أبيض. هذا رأي وهذا موقف .

الأسود أسود. هذا أيضا.

إنما التركيب ، والتشكيل، والترصيع بالأهلة والنجوم والصلبان، والمناجل والمطارق، والسيوف، والشموس، وما إلى ذلك .

كل ذلك يخلط علي تحديد لون، أو بالأصح، ألوان علم هذه الدولة بالذات. هذه التي شغلتني وتشغلني.

لو كنت أعرف تاريخ نشأتها، والتطورات التي طرأت عليها، وموقعها الجغرافي، وانتماءها السياسي والأيديولوجي، وحتى الديني والمعتقدي، لاقتربت، ربما، من تحديد ألوان وشكل علمها.

إنما. إنما.

أنا، وأنا في حالة الاستياء التي تعتريني، هذه. والأرق الذي يشدّد علي الخناق. الأرق اللئيم هذا. كيف لي أن أتذكر ذلك؟

لقد سبق ـ هذا اعتراف في خضم الاستياء والأرق والحزن ـ سبق، وأن توجب علي العودة، إلى الأطالسة.

الأطلس العربي.

أطلس العالم.

الأطلس الجغرافي.

الأطلس السياسي.

الأطلس التلي.

الأطلس الصحراوي.

حتى أني تساءلت إذا لم يكن هناك، أطلس الأطلس.

كان ذلك عندما عزمت على المشاركة في مسابقة نظمتها إذاعة دولية، لا أذكر سوى أنها ليست عربية، رغم أنها تتحدث بلغة عربية مبينة، لا يأتيها اللحن على لسان.

كانت تسأل، على لسان مقدمة البرنامج، ذات الصوت الساحر، ما هو لون وشكل علم دولة الزعبطيطو؟

إي الزعبطيطو. إي والله. أذكر هذا جيدا، وقد استغربت كيف أنني، وأن جميع من سألتهم من معارفي القريبين والبعيدين، فلا أحد بعيد اليوم سوى الشيطان، نجهل جهلا مطلقا، لون علم دولة كبرى مثل الزعبطيطو؟؟؟

حسبي الله، ونعم الوكيل، وهذه الأطالس.

الأطالس.

إي نعم. فقد أردت أن أتأكد من مختلف المراحل التي قطعها علم دولة الزعبطيطو، ولأقلها صراحة، المسكين. المسكين الذي لا أعرفه، ولا يعرفه أحد من معارفي.

كانت ولا تزال، لدي قناعة، بأن الأعلام والأولية مثلها مثل الشعوب. عرضة لنزوات أولي الأمر، وأن علم دولة الزعبطيطو بالذات، عانى الأمرّين.

وقد توصلت، من خلال أبحاثي المعمقة، إلى أن علم الزعبطيطو، لم يكن له وجود أصلا، لسبب بسيط، هو أن الزعبطيطو، لم تكن بالمرة دولة.

الزعبطيطو في الأصل، يقول أحد الأطالسة، منطقة يكثر فيها نبات الزعبطيطو الذي تحبذه جرذان خلد ـ اعتبارا لكونها، لا تنتمي لأية فصيلة من فصائل الجرذان ـ أطلق عليها، بدورها، اسم جرذان الزعبطيطو.

اختلف الزعابطيط، في محتوى علمهم، وألوانه.

بعضهم، يرى أن يكون قطعة قماش سوداء يتوسطها، جرذ أبيض.

بعضهم، وإن وافق على الجرذ وقطعة القماش، إلا أنه رفض رفضا قاطعا، اللونين المقترحين.

طرف ثالث، وافق على المحتوى، وقال إن مسألة الألوان، شكلية. فالسواد يعني الليل، والجرذ أكان أبيضا، أم أسودا، فإنه لا يعني، ولا يمكن أن يعني سوى الزعابطيط، وهو أصدق رمز لدولة الزعبطيطو العظمى.

الطرف الرابع، وهو سبب المأساة، لأنه أقنع الجميع، دون أن يحصل على اتفاق معهم، قال، ليكن العلم بلونين، يتقاسمانه، ويتقاسمان الجرذ أيضا؟

قطعة القماش، نصفها أبيض. نصفها أسود.

الجرذ، نصفه الأبيض يقع في الشطر الأسود، والعكس بالنسبة لنصفه الآخر.

كل هذا جميل ووحدوي، فخير الأمور أوسطها، كما هو الحال، لكن اشتراط أن يتضمن علم دولة الزعبطيطو العظمى، نبتة الزعبطيطو، فهذا ما أصر الجميع على رفضه، بما في ذلك من اقترحوه.

قامت القيامة.

زالت دولة الزعبطيطو، ثم عادت، ثم زالت، ثم عادت. ثم ها هي لا تفتأ تزول وتعود.

في كل مرة، يأخذ علم هذه الدولة شكلا من الأشكال المقترحة والمختلف حولها.

المهم.

شاركت في المسابقة، ولم أعرف النتيجة فيما بعد، ذلك أن من أعلنوها، قالوا إنهم حجبوا الجائزة الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، ولم يقولوا ما فعلوا بباقي الرتب.

غير أنهم أكدوا أنهم سيتصلون بنا.

لا شك أنهم ألغوها جميعا، فقد انقطع الحديث تمام الانقطاع، عن دولة الزعبطيطو وعلمها في هذه الإذاعة، وفي غيرها أيضا منذ ذلك اليوم، وكما لو أن دولة الزعبطيطو المحترمة، زالت مرة أخرى، أو لم يكن لها أي أثر في أي يوم من الأيام.

وقبل أن أهجر الأطالسة وأركنها جانبا شأنها شأن الكتب التي لا أتعاطف معها، وأنسى العملية وما صاحبها من حماس للتعرف على تاريخ البشرية، وعن

عوامل تفرقها وما يمكن أن يوحدها، حاولت وضع ثلاثة أعلام لدولة واحدة، على سطح الكرة الأرضية.

واحد أبيض تماما.

واحد أسود تماما.

واحد أصفر تماما.

قلت بيني وبين نفسي، أضحك على الجميع، عندما أوحدهم، (هناك تفصيل كامل عن معركة التوحيد، ليس المقام مقامها الآن فإن فتحت الحديث عما أنجزه من معارك واختراعات، وفتوحات، في أحلامَ يقظتي قبل أن يداهمني النوم، فلن أقوى على السكوت بعد ذلك.)، فهذه الأعلام، ليست في الحقيقة سوى ثلاث خرق، لعلم واحد، خاصة وأنها لا تحتوي لا على نبتة الزعبطيطو ولا على جرذ الخلد المعروف بالزعبطيطو.

ثم.

لعب الزمان لعبه، واتضح لي أن بلوى الإنسان، أنه كائن لا يستغني على الغذاء، وسيظل همه الأول، أن يأكل وأن يأكل، وأن يوفر ما سيأكل، وأن يسبق غيره إلى كل ما يؤكل.

لا لسبب، سوى الأكل، والحق أقول، والشهادة لله، أنه ليس بالسبب المستهان به.

لقد انبهر أحدهم بمقولتي هذه، واقترح علي أن أتقدم لجائزة نوبل. لكن لم أفعل، ربما ساورني الريب، في أمره.

***

كان يمكن أن أقضي ما تبقى لي من الحياة في هذه الحياة، دون أن أعود إلي موضوع الأعلام، وعلم دولة الزعبطيطو بالذات، لولا ما حدث لي هذا الصباح.

استوقفني الصحفي العبقري، (كما يوصف عادة) وقال لي:

ـ ما ترى فوق؟

ـ عمودا .

ـ وماذا في العمود الحديدي؟

ـ العلم.

ـ أترى أن لونه الأخضر يبدأ من اليمين، عكس ما كان عليه قبل أسبوع ؟

سكت، محاولا التذكر ما إذا كنت، مررت من هنا قبل أسبوع، أو قبل أيام، بينما أضاف:

ـ لقد نشرت مقالا مطولاء عن المؤامرة التي حيكت ضد هذا العلم المسكين، حيث وضع اللون الأخضر بدءا من اليسار.

إنك تعرف معنى اليسار واليمين في وجداننا العربي الإسلامي؟ ثم استطرد فجأة:

ـ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يميز. القط لا يقع على أرنب، والتيس لا يقع على نعجة.

اقرأ مقالي في الموضوع، يصدر غدا.

لم يضف شيئا آخر، فقد اضطر لأن يتركني، ليصطحب فتاة لم يقدمها لي، عثرت عليه في طريقها، الله أعلم إلى أين.

واصلت طريقي، وخطر لي أن ألتفت.

العلم في مكانه يرفرف، واللون الأخضر هذه المرة على اليمين، متبوعا بباقي الألوان.

من تلكم اللحظة اللعينة التي استوقفني فيها العبقري، عاودني الاهتمام، بالأعلام وألوانها ورسومها وتواريخها، وموقع الناظر إليها، وإلى اتجاه ألوانها.

من لحظة دخولي الفراش، وأنا أحاول تذكر ألوان ومشكلات علم هذه الدولة التي حيرتني.

لكن أية دولة يا ترى؟

بالتأكيد أنها ليست دولة الزعبطيطو،

دولة أخرى لا أتذكرها.

ليتني عرفت، ما أنا بصدد التفكير فيه.

يكون النوم قد داهمني عند هذا الحد، ذلك أنني في الصباح، اعتبرت كل ذلك، مجرد استياء وأرق وحزن، سببه موقع رؤية لصحافي عبقري.

الجزائر في 26 جوان 1994

سر ما يجري

تكاد المعلومات التي بلغت قيادة جزيرة ألف ألف ألف تكون نفس المعلومات التي بلغت قيادة جزيرة الف الف باء ، وكأنما هي مصاغة من طرف شخص أو جهاز واحد.

نعم جهاز ، فالشخص في العصر الذي نحن فيه، يقوم بدور ثانوي جدا أمام سيده وسيدنا الجليل الجهاز.

إنه، من السموات العليا ، يرقب ويلحظ ، ويكون الفكرة والرأي ويخرج بالخلاصة ، ويرسلها في الإبان إلى أجهزة أخرى معينة في الأرض يستطيع الإنسان من خلالها أن يعرف ما ستفعل أو تأمر بفعله في أحسن الأحوال.

الأجهزة.

مع كثرتها، مع تنوعها شكلا وتشابهها مضمونا ، باستثناء بعض تفاوت في السرعة وبعض التفاصيل لدى هذا الجيل من الأجهزة أو ذاكم. صار محتملا جدا أن تعترض سبل بعضها ، وتشترك في صياغة الخلاصة أو القرار ، أو أن يختلط عليها المتلقي.

وإلا كيف يفسر سر ورود المعلومات بنفس الصيغة تقريبا لكل من جزيرة ألف ألف ألف وجزيرة ألف ألف باء ، وفي الوقت الواحد؟

ألف ألف ألف يتأهب لإلقاء قنبلته الناسفة عليكم.

الف الف باء يستعد لقذفكم بقنبلته المدمرة.

صيغ القرار: خير دفاع هو الهجوم.

شحنت القنبلة . أحضر الطيار . أعطي التعليمات التالية:

تقلع في الساعة الصفر ، فاصل صفر صفر . تضبط خط طيرانك على خط ش 127. تضبط العلو على مائتى واو. تضبط سرعتك على ألف واو. على الساعة السادسة – ويكون العداد قد سجل ألف ألف واو – تضغط على الزر الذي يؤشر لك لحظتها بالألوان الأربعة ، ترسم نصف دائرة كي تشرع في العودة على نفس الخط ، وهو إذ ذاك كما تعلم ج 127.

بعدها وبعدها فقط، وأبدا ليس قبلها ، يمكنك تشغيل الكاميرات ، لترى ما حولك او ما دونك.

على الساعة الثالثة لفت انتباه كلا الطيارين، إعلان الرادار عن جسم يطير في الاتجاه المعاكس ، بنفس السرعة على نفس العلو ، على نفس الخط.

تجنب ، آ ليا ، ولربما غريزيا ، الجسمان الاصطدام ببعضهما، فارتفع أحدهما قليلا ، بينما هبط الآخر بعض الواوات ، ولم يكن هناك وقت يكفي للسؤال عن الهوية ، أو لتبادل أية كلمة.

قد تكون دورية رقابة.

قال كلا الطيارين في نفسه، واطمأن ليقظة طائرته ولدقة وحكمة أجهزتها، واستغرق في تأمل المئات من الأزرار والعدادات والعقارب، والمؤشرات الضوئية، بعضها يعمل من تلقاء نفسه، وبعضها يعمل بتدخل البعض الأخر، أو بتدخل الإنسان، وهى في مجملها ، يمكن برمجة وتكليف زر واحد بتشغيلها وبرقابتها.

الإنسان ها هنا ملاحظ لا غير. يا لها من راحة وفرها لنفسه .. عما قليل ، في ظرف يسير ، سيتحول كل فعل تجاه الآلة إلى نية.

يكفى أن ينظر المرء إلى زر من الأزرار ليعرف الزر ، ماذا يراد منه. وما إذا كانت نيته جادة وصادقة، وما إذا كان الأمر الصادر عن هذه النية لا يتعارض مع المصلحة المشتركة المبرمجة.

يا له من زمان يتأله فيه الكائن ، ولو جزئيا .

شعرأ احدهما بالرغبة في التخلص من المنظر الآلي هذا ، وتأمل الخارج. صحيح ان الارتفاع الخارق لا يمكّن العين المجردة من الرؤية ، وصحيح أن العين المجردة ليس لها منفذ ، فالطائرة مصفحة ، من جميع الجهات ، وهي أشبه ما تكون بغواصة فضائية ، لكن الكاميرات لها قدرة عالية على تبيان ذبابة تغازل ذبابة على بعد ألاف الواوات.

حلت الساعة السادسة.

لمع زر باللون الحمر، ثم باللون الأزرق، ثم باللون الأخضر، ثم باللون الأبيض.

امتدت اليدان، كل من جانبها، باطمئنان ولا مبالاة.

المهمة انتهت . قال كلا الطيارين ، واستدار في طريق العودة.

فتحا الكاميرات، لتأمل الكون، مع طلوع النهار، هنا، وغروب الشمس هنالك، لكن لم يقابلهما سوى الماء، ينط فيه السمك نطا غربيا .

على الساعة التاسعة ، كشفت الرادارات مرة أخرى عن الجسمين الغريبين.

اشتعلت الكاميرات ، فأبانت لطيار جزيرة ألف ألف ألف، ولطيار جزيرة ألف ألف باء ، أن طائرة عدوة قادمة.

الأوامر لا تنص على إتيان أي فعل آخر ، والمبادرة ، في مثل هذه المهمات، ممنوعة. ليمر الأمر بسلام.

مرا.

الساعة الثانية عشر هنا . الساعة الصفر هنالك.

حاول طيار جزيرة ألف ألف ألف ، بعد أن سجلت عداداته: المسافة صفر. الخط ج 127, الحطّ.

اندهش لعدم تسجيل كاميراته لأية جزيرة، وراداراته لأية يابسة.

حاول طيار جزيرة ألف ألف باء ، بعد ان سجلت عداداته: المسافة صفر. الخط ش 127 الهبوط فلم تقابله يابسة.

اتصل كلاهما بالأجهزة فوق ، فلم تعطهما أثرا لجزيرة.

قرر كلاهما العودة في نفس الخط ليسأل الآخر عن سر ما يجرى.

الجزائر 1993

أربعة تقارير تحدد مصير الزعبطيطو

التأم شمل هيئة الأركان في قبو بالطابق السابع السفلي. تحلقوا حول الطاولة البيضاوية، وراحوا يتأملون وجوه بعضهم البعض، وكأنما يحاول كل منهم قراءة ما في رأس الآخر، هل هو مع الهجوم الشامل أم مع حل آخر.

كانوا أربعة ليس إلا.

قائد القوات الجوية، قائد الأسلحة الفتاكة، قائد الوحدات الإخبارية، قائد القوات الاحتلالية.

انبعث صوت من فوق. رفعوا رؤوسهم، وجدوه. رأس الهرم في المؤسسة. في الشاشة ذات الأربعة أمطار علوا، والمترين عرضا.

كان لا غضبا، ولا منشرحا، ويمكن القول إنه كان عاديا، خاصة من خلال نبرات الصوت:

أريد أن يأتيني خاضعا راكعا خاشعا، قائد الزعبطيط، هذا، قائد ما يسمى بدولة الزعبطيطو. أريده حيا، حتى وإن انقرض كل الزعابطيط.

انطفأت الشاشة، وأعادوا النظر إلى بعضهم.

دخل شاب، منطفئ الملامح، لا يميز الرائي إليه، أهو ذكر أم أنثى.

أدى تحية عسكرية، ووضع ملفا أمام قائد الوحدات الإخبارية، هامسا:

- تم تشفير التقرير الأول.

- عجلوا بالباقي.

ولى محايدا، كما جاء، بينما فتح قائد وحدات الإخبار الملف، وراح يقرأ، متوقفا عند كل جملة.

- الأمور في غاية الزعبطة، كما يقال هنا. يشاع أن الزعبطيط الأكبر، ابتلي بأرق اختياري، حتمه كابوس لا يفارق نومه، ما أن يغمض عينيه، حتي ينتفض، صارخا، ويسرع إلى قوارير العقاقير يعب منها، ثم يأمر بإحضار كبير وزرائه:

- لماذا الشعب ساكت. أريد هتافا متواصلا، يمنع عني النوم.

العميل رقم سبعة آلاف وتسعمائة.

نظر القواد إلى بعضهم من جديد، يستقرئون الأفكار. انبعث الصوت من الشاشة، يسأل في قلق واضح:

- وماذا في باقي التقارير؟

انطفأت الشاشة، ودخل الشاب ذو الملامح المنطفئة، والهيئة المشتبهة:

- الثالث والرابع على الوشك.

وضع التقرير، وانصرف مسرعا، كأنما ليقول لرؤسائه، أنا عائد حالا.

تركزت الأعين الثمانية، على الورقة الصفراء، بين يدي قائد وحدات، الإخبار، الذي راح يقرأ:

- هرج. مرج. كل الزعباطيط في الشارع، ليلا نهارا، يهتفون: لا نوم بعد اليوم، ومن نام خان. يرفعون قبضات أيديهم مهددين عدوا ما. العميل رقم سبعة آلاف.

ابتسم قائد الأسلحة الفتاكة، ولم يسأل عن سر ابتسامه، ولعل لا أحد التفت إليه، غير الذي خلف الشاشة المستطيلة المنطفئة.

دخل الشاب المشتبه، ووضع ملف، هامسا:

- التقريران الأخيران.

جاء في التقرير الثالث، جملة وفقرة.

تقول الجملة، العقار تم وضعه، حسب التعليمات. أما الفقرة فجاء فيها، كل الزعابطيط، ما أن يحاولوا النوم، حتى يداهمهم كابوس، يتمثل في وقوف شيخ هرم، يشوي قطا أسود. وسرعان ما تتحول حرارة الجمر، إلى جسد النائم، فيستيقظ، مرعبا، مسرعا، إلى حوض الماء.

ملاحظة، لكل ما قد ينفع: كل البيوت جهزت بأحواض ماء، قريبة من غرف النوم. العميل تسعة آلاف.

التقرير الأخير، وردت فيه فقرة واحدة، مفادها أن رئيس دولة الزعبطيطو في طريقه إليكم، محملا بالهدايا والاعتذارات. العميل ثمانية آلاف.

الفهرس

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél · 021 84 80 10/84 86 11

للمؤلف

الروايات :

اللاز (موفم للنشر)

الزلزال (موفم للنشر)

الحوات و القصر (موفم للنشر)

عرس بغل(موفم للنشر)

العشق و الموت في الزمن الحراشي (موفم للنشر)

تجربة في العشق (موفم للنشر)

رمانة (موفم للنشر)

الشمعة و الدهاليز (موفم للنشر)

الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي (موفم للنشر)

الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء (موفم للنشر)

القصص :

دخان من قلبي (موفم للنشر)

الطعنات (موفم للنشر)

الشهداء يعودون هذا الأسبوع(موفم للنشر)

المسرحيات :

الهارب(موفم للنشر)

على الضفة الأخرى (مجلة الفكر التونسية)

الترجمة :

الربيع الأزرق ترجمة من الفرنسية للشاعر فرانسيس كومب.






ISBN : 978-9961-62-505-7